المسألة الثانية
المعجزات والعلم

استعمالات لفظ المعجزة

هناك استعمالان للمعجزة:

الأول: حادثة تتضمن قلبا لقوانين الطبيعة أو تدخلاً لما هو فوق الطبيعي في المجال الطبيعي.

وهذا المفهوم قد يطلق عليه بالمفهوم القوي للمعجزة strong sense، وهو ما لا يمكن للقوى الطبيعية إنتاجه، بل لا يصدر إلا عن قوى فوق طبيعية (الإله)

يقول ديفيد هيوم إن المعجزة بالمعنى الأخص لا بد أن يتحقق فيه الأمران التاليان:

الأول: حدث لا يمكن حدوثه بلحاظ القوانين الطبيعية المعتادة، كما لو كنا نعرف أن فلانا مات منذ فترة وتحلل جسده، فعودته إلى الحياة محال بلحاظ هذه القوانين. فإذا كان الأمر خارجا عن قوانين الطبيعة، فإنا نعتبره معجزة، وإلا فلا.

والأمر الثاني: أن يحصل الحدث بتدخل مباشر من الله أو فاعل فوق الطبيعة.

المعنى الثاني للمعجزة: حادثة نادرة وغريبة لا يمكن فهمها.

أو

أنها غير مفهومة لمن شاهدها. كنجاح طالب في امتحان صعب لم يدرس مادته ولم يعد العدة له، فيقول لو عرف أنه نجح: إنها معجزة. وهذا هو الإطلاق العامي للمعجزة.

ويمكن التعبير عنه بأنه أمر غير مناقض للطبيعة، بل لطريقة فهمنا للطبيعة.

وهذا مطرد مع ما قرره السير جورج ستوكس George Stoke بناء على تعريف مفهوم القانون الطبيعي Natural Lawمن أنه القانون الغالب والمعتاد الذي تعمل الطبيعة وفقا له، فقال: "إن المعجزة هي حدث يظهر تبعا لقانون طبيعي لا يعمل عادة، وليس بالضرورة أن تكون المعجزة تعليقا أو إيقافا لقانون الطبيعة المعتاد«

وبهذا المعنى الأخير فإن ما هو معجزة في عصر قد يصبح مقبولا ومفهوما في عصر آخر

دعاوى معارضة المعجزات ومناقشتها

سوف نناقش ها هنا بعض المذاهب والآراء في صدد مخالفة المعجزات وإنكارها أو ردها معرفية وغير ذلك

وما نذكره هنا مجرد أمثلة ، وليس المقصود به الاستقصاء.

الدعوى الأولى: المعجزات مستحيلة عقلاً

من المعجزات التي وردت عن الأنبياء المتقدمين شق البحر لموسى عليه السلام وإحياء الموتى، وإعادة إحياء الحمار بعد تفتت لحمه وعظمه، ومثل هذه الظواهر غريبة عما اعتاده الناس في العصر الحديث، ولذلك يبادر كثير منهم ليقول إن المعجزات محالة عقلا، لمجرد أنهم لم يروا مثلها أو لم يعاصروا زمانها. فهل المعجزات فعلا محالة عقلاً؟

ومن الفلاسفة الشهيرين الذي اعتقدوا أن المعجزات أمر سخيف الفيلسوف سبينوزا Benedict Spinoza (1632-1677)

وتبعا لفلسفته فهو يعتقد بوجود واحد فقط، لا نهائي، وهو الإله، وهو مطابق لهذا العالم، فهو قائل بوحدة الوجود المادية، والإله ليس متعاليا على الكون، وليس وراء المخلوقات، وأفعاله هي عينها المخلوقات. والمعجزات تكون بناء على هذا التصور مستحيلة عقلاً، فحيث كان الإله محايثا للعالم، فلا وجود لأمر متعالٍ عن الطبيعة يتدخل فيها، فكل المظاهر الوجودية متوافقة مع قوانين العالم، فنظامها واجب لازم لا يمكن خرقه.

هناك ثلاثة عناصر كانت تحكم سبينوزا في نظرته هذه:

١-الحتمية الضرورية بين عناصر الكون deterministic view of natural laws.

٢- نظريته الوجودية في الإله المبنية على وحدة الوجود Pantheistic view of God.

٣-بناؤه النظري الأقليدي بوضع أكسيومات أصلية يحاول إرجاع جميع النتائج إليها Euclidean rationalism .

فبناء على هذه المقدمات ينبغي حتما نفي المعجزات.

والرد على أطروحاته في هذا العصر صار أوضح: فالحتمية غير مسلمة فلسفيا، ولا طبيعيا، ووحدة الوجود لا دليل عليها عقليا ولا دينيا، ولا فيزيائيا، ويتبع ذلك البناء الأقليدي الذي يقول به سبينوزا تحكما.

الدعوى الثانية
هيوم: المعجزات غير قابلة للتصديق

زعم بناء على منهجه التجريبي الحسي المحض أنها غير قابلة للتصديق، ولو صحَّ هذا الفرض لما كان فائدة للمعجزة أيضاً كما هو واضح.

فقد كان هيوم يقرر أنه على الرغم من إمكان التصديق بالمعجزات في نفسها، ولكنه من غير المعقول فعل ذلك بناء على أسس معرفية كما سيأتي

الذي يقبل التصديق فقط عند هيوم هو ما يأتيه من طريق الخبرة الحسية

يمكننا تلخيص تقريره المتعلق بالمعجزات:

١-المعجزة هي خرق لقانون الطبيعة المعروف بالعادة البشرية.

٢-هذه القوانين الطبيعية غير القابلة للتغير عرفناها بالخبرة.

٣-الحكماء يعتقدون ما هو موافق للدليل.

٤-الدليل المخالف للمعجزة موافق لكل ما يمكن أن يكتسبه الإنسان بخبرته.

فالخبرة المطردة الموافقة للمحسوسات هي التي تعارض المعجزات، ولذلك فلا يمكن الموافقة على المعجزات ما دام كل ما يمكن اختباره في الطبيعة مخالفا للمعجزات.

إن ما يريد هيوم بيانه إنما هو عدم قابليتها للتصديق، لا استحالتها في نفسها، ويمكن صياغة حجته بطريقة أقرب إلى مراده على النحو التالي:

١-المعجزة بالتعريف نادرة الحصول.

٢-القانون الطبيعي بالتعريف مطرد مستمر الوقوع.

٣-حجية ما كان مطرد الوقوع أرجح دائما مما كان نادر الوقوع.

٤-الحكماء دائما يعتقدون الظاهرة ذات الحجية الأرجح.

٥-إذن، الأفراد العقلاء لا ينبغي أن يؤمنوا بالمعجزات لأنها دائما أقل رجحانا في الوقوع

مناقشة نظرية هيوم:

من أهم ما يرد على حجة هيوم المبينة، حالتان اثنتان:

الأولى أن يشاهد أحدهم المعجزة بعينه، لا عن طريق خبر، فكيف في هذه الحالة يمكنه الشك في المعجزة وهو يراها بحسه.

والحالة الثانية: أن يتم نقل المعجزة عن طريق خبر التواتر الذي لا يقبل الشك ولا الردّ وفي هذه الحالة يقوم التواتر مقام المشاهدة الحسية المباشرة

والنقد المنهجي الأكثر أهمية هو التالي: بالغ هيوم من قيمة ما نعتبره قوانين طبيعية، لأننا نعلم بالتأكيد أن قوانين كثيرة اكتشفت نتيجة لاعتبارنا بعض الظواهر الشاذة المخالفة لما كنا لاحظناه من نتائج مطردة، ونتيجة لذلك فقد تم اكتشاف كثير من القوانين الطبيعية أو تعميمها لاحقاً على حالا في مجالات أوسع مما كنا نعتقد أنها محدودة فيه.

فرفضه لقبول المشاهدات المخالفة للمعروف المعتاد، يسد طريق البحث العلميّ.

لزوم عدم إمكان المعجزات في المستقبل

يلزم على طريقة هيوم ألا يمكن حصول المعجزات في المستقبل كما هي في الماضي، فقط لأنها نادرة الحصول.

وهذا مخالف للمنهج العملي الذي يلتزم به هيوم، وهو الطريقة التجريبية، فهذه الطريقة لا تجزم بنفي حصول الشيء المستقبلي. خصوصا مع نفيه للتعليل.

لزوم عدم إمكان حصول أي أمر مخالف للخبرة البشرية بما قد حصل لنا حتى هذه اللحظة.

ومن الواضح أن ذلك مخالف للواقع.

الدعوى الثالثة:

أنتوني فلو: ودعوى عدم عقلانية المعجزات

يمكن تلخيص دعواه في النقاط التالية:

١-المعجزات بطبيعتها خاصة وغير متكررة.

٢-الحوادث الطبيعية بطبيعتها عامة ومتكررة.

٣-عمليا، فإن الحجة على ما كان متكررا وعامّ الحصول أعظم عادة من الخاص وغير المتكرر.

٤-إذن: عمليا، فالحجة المضادة للمعجزات ستكون دائما أكبر من التي معها.

هناك ملاحظات ترد على طريقة أنتوني فلو

أولا: لقد قبل الطبائعيون كثيرا من الأمور التي لم تتكرر في العلوم الحديثة. منها نظرية الانفجار العظيم التي هي أصل نشوء العالم الذي نعيش فيه، فلو كانت طريقته في التفكير صحيحة لما جاز لهم قبول هذه المتفردة.

ثانياً: فرضية أنتوني فلو غير قابلة للنقض، لأنه مهما فرضنا من أمور لن يقبلها لأنه سيعتقد دائما أن الحجة المضادة للمعجزات ستكون أعظم من المؤيدة لها، فموقفه المعارض لما فوق الطبيعة سيكون دائما ثابتا على أسسه التي يقررها، وهذا مبني على موقف naturalism المتعنت.

وللمؤمن أن يقول: إذا كانت الطبيعانية غير قابلة للنقض، فكذلك الإيمان بالله تعالى، غير قابل للنقض، وينبغي أن يسمح لهم أنتوني فلو بذلك.

ثالثا: بناء على طريقته في التفكير، يلزمنا أن ننفي أي حدث تاريخي غير معتاد، لأنه غير متكرر، وليس خوارق العادات فقط، بل إن التاريخ الجيولوجي للأرض أيضا ينبغي أن يتم إلغاؤه لأنه غير متكرر، كما ينبغي نفي كل موت وحياة مشاهدة لأنها غير متكررة أيضا.

الدعوى الرابعة
المعجزات والتفسير العلمي

رودلف بولتمان يقول إن من يقبل العلم الحديث ينبغي عليه أن يرفض أي تفسير للحوادث في العالم الطبيعي باستخدام أفعال ناشئة عن قوى أو أفعال خارقة للطبيعة أو فوق الطبيعة (مثل: الملائكة، الآلهة، الشياطين...الخ)

غاية ما يمكن دعواه هو أنها لا يمكن تفسيرها بواسطة القوانين العلمية المعروفة، أما أن يقال: إنها لا يمكن تفسيرها علميا مطلقا، فهذا لا يمكن لأحد أن يقرره، ولا ينبغي للجوء لتفسير فوق طبيعي supernatural

تلخيص الدعوى:

١-كون الحدث لم يتمَّ تفسيره علمياً، لا يعني أنه غير قابل للتفسير علمياً.

٢-المعجزات لم يتمَّ تفسيرها علمياً.

٣-إذن: المعجزات ليس بالضرورة أن تكون غير قابلة للتفسير علمياً.

فقد يحصل في بعض الأحيان أن يكون حدث معين معزوا لمعجزة في بعض الأزمان، ثم يمكن تفسيره بعد ذلك عندما تُكْتَشَفُ أسبابُه الطبيعية.

المناقشة

نقد هذه الطريقة:

١-إنه يعرف (التفسير) بطريقة ضيقة بحيث يستثني التفسير لأي ظواهر فوق طبيعية، ويصر على أنّ التفسيرات كلها يجب أن تكون طبيعية وعدا ذلك فلا يمكن أن تعدَّ تفسيراتٍ!

٢-يفترض باتريك من دون دليل مسبق أن أي ظاهرة يجب في النهاية أن تكون بحسب مقتضى القانون الطبيعيّ. ولكنه لا يملك أي دليل علمي على هذه الدعوى، إنه مجرد التزام بمذهب الطبيعانية الفلسفي.

٣-وحتى لو واجه باتريك ظاهرةً فوق طبيعية، فإنه بكل بساطة سيفترض أنها في النهاية يمكن تفسيرها بواسطة قوانين طبيعية، سواء منه أو من غيره.

٤-يشترط باتريك للتفسير العلمي أن يكون قادراً على توقع أحداث أخرى، وهذا ما لا يعطيه إياه أي تفسير لأي معجزة. مع العلم أنه توجد ظواهر طبيعية لكن لا يقدر أحدٌ على توقعهاأبداً ،مثلاً، لا يمكن لأحد توقع متى يتزوج العازب! ولكنه متى ما نوى الزواج، نعرف ما سيحصل طبيعياً بعد ذلك.

الخاتمة

إعادة النقد والتحليل العميق للدعاوى والنظريات
قد يظهر جهات من الضعف أو القوة لا نتوقعها قبل الدرس العميق.